حلول التعب والآلام بوصول أبي الذهب إلى دمشق الشام

تأليف

سليمان بن أحمد المحاسني
المتوفى سنة ١١٨٧ هـ.

تحقيق

الدكتور صلاح الدين المنجد

الطبعة الثانية
زيد في مقدمتها والتعليق على النص

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

حُلولُ التّعَبِ والآلام
بوُصولِ أبي الذهب الى دمشقَ الشّام

حلول التعب والآلام
بوصول أبي الذهب إلى دمشق الشام

تأليف

سليمان بن أحمد المحاسني

المتوفى سنة ١١٨٧ هـ

تحقيق

الدكتور صلاح الدين المنجد

الطبعة الثانية

زيد في مقدمتها والتعليق على النص

دار الكتاب الجديد
بيروت • لبنان

الطبعة الثانية

دار الكتاب الجديد – بيروت

١٤٠٠ هـ/١٩٨٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدّمة

الرسالة التي نقدمها نص تاريخي هـــام يتعلق بالمحاولة الأولى التي جرت في القرن السابع عشر عام ١١٨٥ هـ ١٧٧١ م لسيطرة مصر على الشام، بعد أن انفصلت عنها بزوال حكم المماليك ومجيء العثمانيين. وقد أعقبت هذه المحاولة، محاولةٌ ثانية في القرن الثامن عشر عام ١٢٤٨ هـ ١٨٣٢ م. وقد باءت المحاولتان بالفشل. أما الأولى – وكانت على يد محمد أبي الذهب – فإنها لم تنجح قط، فبعد وصوله الى دمشق ارتدّ عنها. وأما الثانية فقد نجحت، لكنّ عمرهـا كان قصيراً، وكانت على يد ابراهيم باشا. وقد ثار السوريون على حكومـة مصر، فاضطر، بتأثير مؤثرات داخلية وخارجية، الى الانسحاب من الشام بعد أن بقي فيها الى سنة ١٢٥٦ هـ ١٨٤٠ م.



كان علي بيك، زعيم المماليك، يحكم مصر، يكاد يكون مستقـــلاً عن العثمانيّين، وكان معتمداً على كبير أمرائه محمـد أبي الذهب. وكان عثمان باشا يحكم الشام للعثمانيين، ويذكر المرادي أنّ أيامه بدمشق كانت أيام فرح وسرور، وأمان ودعة. وله آثار عمرانية بدمشق. (سلك الدرر ٣ – ١٦١) فشكا أهالي غزة الى علي بيك أنهم يلقون الكثير من العنت من عثمان باشا. فعـــزم علي بيك أن « يطهّر الأرض منه »، وأخـــذ فتوى من المذاهب الأربعة في

مصر على جواز قتاله ، وجهّز له بقيادة محمد أبي الذهب ، جيشاً كبيراً .. فلما بلغ عكا انضم اليه خمسة من أولاد ضاهر العمر ، ثم التحق به « مشايخ المتاولة والصفدية » . فأقبل نحو دمشق ومعه أربعون الف مقاتل ، وثمانون مدفعاً .

أمرت الدولة العثمانية وُلاتها بالشام بالتوجّه الى قتال أبي الذهب . فتجهّز والي حلب عبد الرحمان باشا ، ووالي كِلّس خليل باشا ، ووالي طرابلس محمد باشا ، ووالي الشام عثمان باشا . فلما بلغ ابو الذهب داريّا – وهي قرية في غرب دمشق الجنوبي ، من الغوطة – لقيتْهُ العساكر العثمانية مع الوزراء الأربعة الولاة . وقامت المعركة بين المصريين وجنود العثمانيين في سهل داريّا . لكن سرعان ما انكسر العثمانيون ، وفرّ خليل باشا وعبد الرحمان باشا . وثبت كافِلُ دمشق عثمان باشا وولده والي طرابلس محمد باشا ، وثبتَتْ معهما العساكر الشامية . ودام القتال ثلاثة أيام . ثم فرّ عثمان باشا وولده الى دمشق . عندئذ أرسل أبو الذهب يطلب علماء دمشق وأعيانها . فلما لقيهم طلب اليهم تسليم دمشق ، وأكد لهم – على قول المؤرخ المرادي – أنه « لا بُدّ له من أخذها على أية حالة ، وتَوَعّدهم إنْ خالفوه أنْ يُحرقها ويأمرَ جميع أهلها » . (المرادي ، سلك ١ – ٥٥) . فاستمهله العلماء حتى يجتمعوا بسائر العلماء والأعيان ، ويتشاوروا في الأمر . وصادف أنْ فرّ من دمشق عثمان باشا وابنه ، وفَرّ رئيس الجند يوسف آغا جبري ، وفَرّ الأعيان ، وكذلك نقيب الأشراف والمفتي . ولم يبق بدمشق مقاتلٌ يحميها . فاستولى على الناس الخوفُ والفَزَع ، وأسرعوا الى العلماء يسألونهم أن يواجهوا أبا الذهب ، ويسلّموه الشام خوفاً من بطشه ، ودفعاً لغائلته . فخرج لملاقاته كبار العلماء ، وكان فيهم مؤلف الرسالة هذه ، سليمان بن أحمد المحاسني ، خطيب الجامع الأموي وإمامُه . فصادفوا عساكر أبي الذهب مقبلة نحو دمشق ، عند القَدَم ، في الجنوب من دمشق . فاستوقفوها ريثما يقابلونه . فلما دخلوا عليه تكلموا معه ، وما زالوا به حتى أخذوا منه أماناً لأهل دمشق .

أراد أبو الذهب أن يحكم دمشق من اللحظات الأولى ، فيعيّن ويعزل . وقد شاء أن يعيّن لدمشق قاضياً ومُفتياً ونقيباً للأشراف ، لأن القاضي والمفتي والنقيب كانوا قد فرّوا منها ، رُعْباً من بطش العسكر المصري . لكنّ علماء دمشق اجمعوا أمرهم على رفض ذلك ، وأعلموا أبا الذهب أنّ توجيه هاذه المناصب هو للخليفة السلطان ليس له . واحتالوا عليه بأن أقاموا وكلاء عن أولائك .

لكنّ أبا الذهب نَكَثَ العهد الذي أعطاه بالأمان ، ونصب القنابر – أي القنابل – ، على القلعة . ويقول المرادي : إن سبب ذلك أن رئيس جند القول أغلق باب القلعة ورفض أن يُسلّمها . فسلّط عليها أبو الذهب القنابر ، وكان يُرسلها نحوها من المرج الأخضر . فلِغباوة الجند المصري صارت القنابر تنزل على أهل البلد ولا تنزل على القلعة ، حتى وقع على سقف الجامع الأموي منها واحدة فخرقته .

وخشي الناس أن تُهدَم المدينة ، واشتدّ الرعب . وكانت دمشق في الماضي قد ذاقت العذاب من جند المصريين عندما أحرقوا مسجد دمشق في سنة ٤٦١ هـ ، أيّام الفاطميين . فثارت الحميّه في نفس المحاسني مؤلف الرسالة ، فتوجّه الى أبي الذهب ، وأبان له سوءَ ما فعل من ضرب دمشق بالقنابر ، وأفهمه أن دمشق مدينة مقدسة ، وأيّد كلامه بالأحاديث النبوية ، والأحاديث القدسية ، ومنها « يا شام ! من أرادك بسوء قَصَمْتُه » . فأذعن أبو الذهب ، وأرسل ينادي بالأمان لكن بعد أن نَهَبَتْ عساكرُه وقتلتْ وأحرقت .

وكان المحاسني جريئاً في قوله ، واستطاع أن يؤثّر في أبي الذهب فأوقف ضرب دمشق ، ومنع عساكره من النَهْبِ والسَلْب ، فيها وفي ضواحيها .

وظلّت القلعةُ الدمشقية مستعصيةً لم تسلّم مفاتيحَها لأبي الذهب .

ويبدو أن أبا الذهب أحسّ بمقاومة القلعة ، وأحسّ بنفرة الدمشقيين منه ومن جنده ، فأرسل الى علماء دمشق رسالة يذكر فيها أنه لم يأت الى دمشق إلا لملاقاة عثمان باشا ، وأنه لما تأكد أنّ عثمان باشا خرج من دمشق عزم هو على العودة الى مصر ، وطلب من العلماء أن يدعوا للسلطان ، وله بالتبعيّة . وطلب جواب العلماء . فأجابه العلماء جواباً بلغ المنتهى في الزراية به ، فأعلموه أنهم تسلـّموا رسالته ، وفهموا ما فيها ، وانهوا رسالتهم بقولهم : « فتوجّهوا الى حيث شئتم والسلام » .

وهاكذا لم يطلب علماء دمشق من أبي الذهب البقاء فيها ، رغم كلّ ما فعله من تدمير وضرب ، وما أظهره من جبروت وقوّة .

ويحدّثنا ، رسلان القاري في رسالته « الوزراء الذين حكموا دمشق » عن مجيء أبي الذهب وما فعله ، قال : « كان بين علي بيك وعثمان باشا عداوة. وكان علي بيك من الخوارج (أي على الدولة العثمانية) ، فأرسل من تحت يده صناجقي وعسكراً ، والمقدّم عليهم محمد بيك أبو الذهب . واتفق معهم ضاهر العمر وأولاده وعساكرهم ، والمتاولة ، والصفدية ، وصاروا أكثر من خمسين ألفاً . وقصدوا نحو الشام . وصلت الأخبار الى عثمان فكتب الى عساكر حلب، وكِلـّز، وعينتاب، وعزاز . وأرسل الى والي خليل باشا باشة حلب . واجتمع خلقٌ لا يُعَدُّ ولا يحصى . ووصلت عساكر الأعدآء ، وأبو الذهب ، وحَطّ بالعسالي . وخرجت أولاد البلد والعساكر وحاربوهم ثلاثة أيّام . وقعتْ المخامرة بينهم ، وأعطى (أي أبو الذهب) كثيراً آغة الانكشارية يوسف آغا . وهرب أكابر البلد . فلما رأى عثمان باشا ذلك الأمر أخذ أولاده وهرب . فدخل عسكر مصر ومَنْ معه ، وقـُتل خلقٌ منهم كثير . وحرقوا ونهبوا ، من بوّابة الله الى السويقة . ودخل القول الى القلعة حموها . وحاصروها ، فللـّه درّ مصطفى آغا آغة القول ، حمى القلعة بالمدافع والبارود . وقهر أبو

الذهب والعساكر ، وقد ضرب عليه (اي ابو الذهب) نحو خمسين قنبرة . ولكن لطف الله دارَكَ ، فما نزل بالقلعة ثلاث اربع مدافع ، وثلاث أربع قنابر ، وما آذوا شيئاً . والباقي راحوا بَرّا . وشيء منهم وقع في جامع الأموي ، وشيء منهم وقع بالأزقة . فلله الحمد . وما تآذى أحد . ولما عجز عن القلعة ببركة رجال الشام أخذ العساكر وسافر[1] .

وعاد ابو الذهب الى مصر . ولم يرض علي بيك عن تركه دمشق بعد الاستيلاء عليها ، فغضب عليه وطرده ، وانقلب ابو الذهب عدوّاً له (سلك الدرر ١ – ٥٥) .

إنّ عَمَل علي بيك يدلّ على أنه كان لا يقصد من إرساله الجيش قتال عثمان باشا[2] فقط ، بل كان يود الاستيلاء على دمشق والبقاء فيها .



إن شأن هذه الرسالة آت عن كونها كُتبتْ بقلم شاهد عيان ، شهد الحادثة ، وكان هو نفسه أحد الذين قابلوا أبا الذهب . وأسرة المحاسني أسرة عتيقة بدمشق ، توارثت العلم والقضاء أجيالاً طويلة . وكان منها خطباء دمشق ، وقضاتها ، وأئمة الجامع الأمويّ فيها . وقد قال مفتي دمشق محمد بن عبد

---

١ – الوزراء الذين حكموا دمشق ص ٨٣ – ٨٤ (في كتاب ولاة دمشق في العهد العثماني ، تحقيقنا . دمشق ١٩٤٩) وانظر تفصيلات أخرى في خطط الشام للاستاذ كردعلي ٢ / ٣٠٣ – ٣٠٧ .

٢ – كان عثمان باشا تولى دمشق سنة ١١٧٤ ، وبقي فيها حتى توفي سنة ١١٨٥ هـ . (الوزراء الذين حكموا دمشق للقاري ص ٨٣) .

الرحمان الغزي في هذه الأسرة :

اذا افتخـر الأنام بأرض شام
وعَـدّوا دورَهـا ثم المساكنْ
أقـولُ مُفاخـراً قولاً بديعـاً
محـاسنُ شامنـا بيت المحـاسنْ

وقد أورد هذه الأبيات المرادي (سلك ، ٤ – ٢٢٣) .

ويحدثنـا المرادي ، أن مؤلف الرسالة – سليمان بن أحمـد بن سليمان بن اسماعيل بن تاج الدين بن أحمد المحاسني – كان خطيب الجامع الأموي وإمامه، وأنه كان أديباً حاذقاً ، وذكياً نبيها . وكان يقتني الكُتُبَ ويضبطها ضبطاً حَسَناً بخطـّه . وتقلـّبَ في الوظائف وتولـّى نياباتِ القضاء بالمحاكم ، ودَرّس في الجامع الأموي . وبالجملة كان من علمـاء دمشق وأعيانها . وذهابـه الى أبي الذهب في العلماء الذين ذهبوا اليه دليلٌ على ذلك ، ثم ذهابه اليه وحـدَه ، وجرأتـُه عليه دليلٌ على قوة شخصيته ، وصَدْعه بالحقّ .

وكأنما أراد المرادي – وهو معاصر له – أن يغمز منه ، بلا حقٍّ ، عندما ذكر أنه أغرض على ابن جبري آغة اليرلية – وهي فرقه من الجند – وأنـّه نسبه لأمور خالية عنه . ثم يذكر أن عثمان باشا ، عندما عـاد الى دمشق بعد ذهاب أبي الذهب، قبض على ابن جبري وخنقه في قلعة دمشق وضبط أمواله. وكان المحاسني قد اتهم ابن جبري بأنه ساعد العسكر المصري على القدوم الى دمشق ، في أمور أخرى . وألـّف رسالةً اسمها « البغْيُ والتجريّ في ظهور ابن جبري » . ويذكر المرادي أن الرسالة اشتهرت يومئذ .

وتوفي المحاسني سنة ١١٨٧ هـ/ ١٧٧٣ م . يوم وفاة السلطان مصطفى خان (انظر : سلك الدرر ١ – ١٦٥ وما بعدها) .

* * *

ان عنوان الرسالة يدل على الألم الشديد الذي كان يعتلج في نفس المحاسني نحو أبي الذهب والعسكر المصري ، وعلى العصبيّة الشديدة لدمشق وحُبّه لها. إذ يصف نفسه في رسالته بأنه « المحترق بسعير هذه النار الموقدة من الفتن العظيمة » ، أي فتنة أبي الذهب . وهو في الرسالة يبدو عظيم الألم لما أصاب دمشق ، ويصفُها وأهلها بعد ذهاب أبي الذهب فيقول : « استمرّتْ أهلُ الشام في عظيم الشدة والضيق لذهاب أموالهم وخراب قرايا الشام » . ثم يقول : في آخر رسالته : « فنسأل الله سبحانه بالأنبياء العظام ، بالملائكة الكرام ، أن يلهم الدولة العلية الانتقام ، ممن كان السبب في تحريك هذه الأمور ، وتخريب البلاد ، وايذاء العباد ، ونهب الأموال ، حيث بقت أهالي الشام في أسوء حال .. »

ومن عجيب المصادفات أن دمشق والشام أصابها أثناء خروج ابراهيم باشا وجيشه المصري ما أصابها لدى مجيء أبي الذهب، بل أكثر ، من النهب والسلب وفرض الغرامات والاستيلاء على الأرزاق ، وقد نكـّل ابراهيم باشا بالدمشقيين لأنه شعر بالعداء منهم (انظر : ابراهيم باشا في سورية ، لسليمان بو عز الدين ، ص ٢٩٩ – ٣٠١) . وقد فصّل مؤرخ دمشق عبد الرزاق البيطار ما أصاب دمشق على يد ابراهيم باشا في تاريخه حلية البشر (الجزء الأول ، ص ١٥ وما بعدها) .

* * *

إنّ هذه المحاولة المصرية الأولى للاستيلاء على الشام جديرة بالعناية والدراسة

بتفصيل ، لبيان دواعيها ونتائجها . ولسنا نحن بصدد هاذا في هاذه المقدمة . ولا شك أن هاذه الرسالة هي أول المصادر التي ينبغي الرجوع اليها . وقد ذكر بعض المؤرخين الذين عاصروا الحادثة أو رأوها شيئاً عنها . نذكر منهم :

المرادي ، سلك الدرر ، وقد مر ذكره .

ميخائيل بريك الدمشقي ، في تاريخ الشام ١٧٢٠ — ١٧٨٢ ، ص ١٣٧ (ط . حريصا ١٩٣٠) .

الجبرتي ، عجائب الآثار ، ١ — ٢٦٤ (ط . بولاق ١٣٠١ هـ .)

أحمد واصف ، محاسن الآثار ٢ ، — ٢١٥ (ط . استامبول ، ١٣١٩) وقد تفرد بذكر الخطاب الذي وجهه علي بيك الى علماء دمشق على يد أبي الذهب .

رسلان القاري ، الوزراء الذين حكموا دمشق . ص ٨٤ (في كتابنا : ولاة دمشق في العهد العثماني ، دمشق ١٩٤٩) .

ومن الدراسات الحديثة :

محمد رفعت رمضان ، علي بك الكبير . ص ١٦٥ (القاهرة ١٩٥٠) .

محمد كردعلي ، خطط الشام .

★ ★ ★

عثرنا على الرسالة في مكتبة جامعة برنستن . وهي برقم ٣٧٦٠ (مجموعة يهودا) ، وهي نسخة المؤلف نفسه ، كتبها بخطه في ربيع الأول سنة ١١٨٥ ، أي بعد خروج أبي الذهب من دمشق . وتقع في ثماني ورقات .

ولما كنا عُنينا ، منذ زمن بعيد ، بنشر جميع النصوص التاريخية المتعلقة بدمشق ، ونشرنا منها الكثير ، فقد رأينا أن ننشر هـــذه الرسالة أيضاً ، لفائدتها وشأنها وكونها تجلو صفحة من تاريخ دمشق في القرن الثـامن عشر . ويمكن اضافتها الى المصادر المتعلقة بتاريخ دمشق في العهد العثماني التي نشرناها في كتابنا : ولاة دمشق في العهد العثماني .

وقد حافظنا على نص المؤلف كما كتبه بخطه ، وفيه أحياناً ألفاظ عاميّـة دمشقية ، وأخطاء نحوية ، وأردفنا النص بفهرس للألفاظ التركية التي وردت وما يقابلهـا بالعربية ، وآخر للألفاظ العاميّة الدمشقية ومعناهـا ، وفهرس للأعلام . والله الموفق ، والحمد لله .

صلاح الدين المنجد

« النص »

بسم الله الرحمن الرحيم ، وهو حسبي ونعم الوكيل

الحمد لله مؤيد شريعة نبيّه سيد الأنام، رافع أعلام كلمة التوحيد بالحق المتين الى يوم الحشر والقيام ، ناصر لوآء من اختاره إماماً للعباد من الدولة العادلة العثمانية ، المستمرة إنْ شاء الله على توالي الليالي والأيام ، المرتبطة أحكامها بالشريعة المطهرة ، المحافظة على ما فيه رضاءُ الملك العلّام ، القامعة لظُلْم وكُفْر مَنْ بغى وطغى في سالف العصور والأعوام ، وانها هي الدولة الباقية الوارثة كما استُنْبط من له قوة في العلم والافهام ، من قوله سبحانه وتعالى في كتابه المكنون (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثُها عبادي الصالحون)[1] ، ألا وهم آل عثمان ، ذوو الشوكة والمرحمة والإيمان ، أيّدَ اللهُ خلافتَهم الى انقضاء الدَوَران ، وأيّدهم بنصره ورفعته على ممر الأوقات والأزمان ، لاسيّما سلطاننا الآن من هو صفوة الدولة العثمانية ، مالك سرير الخلافة الخاقانية ، ملك ملوك الممالك الاسلامية ، خادم الحرمين الشريفين ، سلطان (٢ آ) البرّيْن والبَحْرَيْن ، سيفُ الله المسلول على أعداء الدين ، المتوشّح بنور الايمان والعلم واليقين ، ملك ملوك العالمين ، السلطان بن السلطان بن السلطان الملك المؤيد الغازي مصطفى خان[2] ، دام محروساً مؤيداً أبد

١ - سورة الأنبياء ، ٢١ ، الآية ١٠٥ .

٢ - هو السلطان مصطفى خان الثالث. تولى السلطنة في صفر ١١٧١ هـ/ اكتوبر ١٧٥٧، وتوفي في ذي القعدة ١١٨٧ هـ/ يناير ١٧٧٤. (انظر أخباره في : تاريخ الدولة العلية العثمانية، لمحمد فريد بك ص ١٥٢ - ١٥٩) .

الآباد ، بعزٍّ مَديد ما له نفاد ، وسيفُ قهرِ سلطنته مُحكماً في رقاب الطغاة البُغاة اللئام ، آمين .

أحمده سبحانه على نِعَمٍ لا تُحصى ، من الاكـــرام ، وأشكره على أنْ مَنَحنا يقيناً وتثبيتاً على الحقّ والشهادة من فيض فضله الكريم الإنعام .

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادةً تدفعُ عنا الأهوال ، وتكون ذخيرةً لنا ليوم الزحام .

وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبدُه ورسولُه ، المؤيّد بالمعجزات العظام ، الذي جاهد في الله حقّ جهاده ، حتى نصر كلمة التوحيد ، ومحا قَتام الجور والظلام ، وعلى آله وأصحابه الكرام ، الذين أسهروا في نصرته أعيُنـــا رضاءً للملك السلام ، وطلباً لثوابه العميم بدار المقام ، وسلّم تسليماً ما فرّجت شدةً من لطف ذي الجلال والاكرام .

(٢ ب) وبعد ، فيقول العبد المفتقر الى مولاه ، الراجي من ربه سبحانه حسن الختام في دنياه ، المحترق بسعير هذه النـــار الموقدة من الفتن العظيمة ، والداهية التي لم تُصَبْ بمثلها دمشق الشام ، من سالف الدهور القديمة ، من حين فَتْحِ السادةِ الصحابة ، وتمهيدِ البلاد على أحسن إصابة ، ولكن قدّر ذلك الحكمُ العَدْل ، الذي لا يُسأل عمـــا يُفعل وهم يُسألون ، إنّا لله وإنّا اليه راجعون . وأنا الفقير سليمان بن احمد المحاسني التميمي ، المدرّسُ والخطيبُ بجامع بني أمية ، لطف الله به وبالمسلمين أجمعين ، وسمّيْتُهـا « حلولُ التعبِ والآلام بوصول أبي الذهب الى دمشق الشام » صانها الله عن الكفرة الطغام ، على أبد الأيام آمين .

★ ★ ★

فأقول كما وقع على التحقيق وبالله سبحانه التوفيق الى أقومِ طريق : إنّ أعظمَ ما توالت به المحنُ والآلام ، وَرَمَتْ به حوادثُ الليالي والأيّام ، ما

قـدّر به الباري وأراد ، ليُظهر حقيقةَ المتمسّكِ بدينه وسلطانه على اليقين ، ولا يبـالي بضرب السيوف والحتوف (٣ آ) ولا يموت على الحق ولو رغمت منهم الأنوف ، ممن يُظهر الخديعة والنفاق، ويُبْطِنُ الكفرَ ويجنح الى الشقاق، المتوطنون بدمشق الشام ، الداخلون في صدقـات وخيرات ملك ملوك الاسلام .

انه توالت المحن ، وخُيِّلَ للباغي الفعـلَ السيء أنّه حَسَن ، وتوجّهت عساكرُ مصر بمن معها من البغاة أعداءِ الدين ، أولاد ظاهر العُمَر[1] اللعين ، واجتمعوا من عدة أشهر تقدّمَتْ ، وغير خافي ذلك عن مسامع الدولة العلية والحضرة السلطانية . وكان عثمان باشا سبباً لمـا أرادوا أن يتوصّلوا اليه من البليّة ، وضبط البلاد بالكليّة ، وفعلوا العام الماضي ببيت الله الحرام ، مـا فعلوه من الكفر والاهانة والقتام ، واستباحوا حرم مكة ولم يُبَحْ لأحـدٍ في الاسلام ، وجاؤا مجتمعين الى أن وصلوا الى فنـاء دمشق الشام ، وضربوا سرادقاتهم خارجها على رؤوس الاشهاد والاعلام ، واستباحوا دمـاء المسلمين وأموالهم وبلاد الاسلام ، المقدسة المطهرة معدن الانبياء والأولياء العظـام ، وذلك يوم الاثنين (٣ ب) تسعة عشر صفر سنة ١١٨٥ ، وكان قائد عسكرهم محمد بيك المكنّى بأبي الذهب ، ذي المكايد والتعب ، ومعه تسعة صناجق وخمسة من أولاد ظاهـر العُمَر ، الشقيّ الخبيث مُحـرّك الفساد ، ومُتْعِب البلاد والعباد ، ومشايخ المتاولة والصَفَديّة أهل البِدَع والرفض والكفـر والفساد ، ومعه نحو ثمانون (كذا) مدفعاً ونحو أربعين ألف مقاتل .

ففي ثاني يوم الثلاثة حَصَل الجَنْكُ منهم ، وخرج اليهم مُتَصَرّف حلب

---

١ – هو ظاهر بن عمر بن أبي زيدان ، حاكم عكا وصفد والناصرة وطبرية ، وامتد حكمه الى صيدا ، وجبل عامل ، وشرقي الأردن ، والرملة . قاتله ابو الذهب وهزمه ، وقتـل سنة ١١٩٦ هـ (انظر سيرة ضاهر العمر لميخائيل نقولا صباغ) .

عبد الرحمن باشا ، ومتصرف كِلِّز خليل باشا ، وعساكر عثمان باشا ، وولده متصرف ترابلس (طرابلس) الشام محمد باشا . ففي أقل من ساعة فرّ هارباً خليل باشا وعبد الرحمن باشا وعساكر والينا وولده ، وقُتل منهم شرذمة قليلة. وبقي والينا عثمان باشا وولده محمد باشا، وعسكر الشام اليرليه والقبقول، وحصل القتال معهم ثلاثة أيام وأحرقوا في محلة التركمان بيوتاً وحاراتا . (كذا) .

ثمّ في ليلة الجمعة ٢٤ ص[1] ، ذهب عثمان باشا فارّاً وولده محمد باشا فاراً وولده محمد باشا ليلاً لطرف حماة مالكانته .

ويوم الجمعة ورد مكتوب من أبي الذهب للأعيان والعلماء يطلبهم لمواجهته . فذهب اليه علي أفندي محدّث الشام الداغستاني (٤ آ) وأسعد أفندي بكري زاده ، والسيد محمد العاني المدرّس بجامع بني أمية . فحين واجهوه طلب منهم تسليم البلاد ، وإنْ ما سلّموا يأخذها قهراً وحَرْباً وقتالاً ، ويحرق جميع الشام . فأخذوا منه المهلة لصباح يوم السبت لأجل المشاورة مع بقية العلماء وأهل الشام والاوجاقات .

ففي تلك الليلة ليلة السبت ٢٥ صفر بعد العشا فرّ هارباً يوسف آغا جبري زاده آغاة اليرليه ، واليرليه جميعاً ، وجميع القبقول ، ما عدا مَنْ في القلعة فإنهم حافظوها ، ومعهم آغتهم مصطفى آغا ، وسكّروا باب القلعة ، واهتموا بأمر القتال بأدوات الحرب والمدافع . وكذلك ذهب السيد حسين أفندي المرادي المفتي ، وأسعد أفندي البكري ، وحسين أفندي ابن حمزة لطرف حماة ليلا ، ونقيب أفندي العجلاني فرّ هارباً لطرف الجبل والدروز ، وعمادي زاده السيد علي أفندي لطرف القرايا ، وآلاي بيك ، وكومش زاده ،

---

١ - ص ، يعني صفر .

وبقية الاوجاقات . ولم يبق في البلدة مُدافع للعساكر أو مقاتل . وبقت (كذا) أهل الشام مترقبين الحرق والنهب ، والقتل وسَبْي النسا ، وماتوا (٤ ب) جوعاً وخوفاً من ذهاب والينا عثمان باشا وذهاب الأعيان وتخلية البلدة .

فحينئذ خرج شيخ المحدّثين الداغستاني ، ومؤلّف الرسالة كاتبه سليمان المحاسني الخطيب ، ومفتي الشافعية ، والشيخ خليل الكاملي المدرّس ، والشيخ عبد الخالق المدرس ، وبعض أهل العلم ، وأوقفنا عساكر أبي الذهب المرسلة للهجوم على البلدة الى حين نواجهه . فحين واجهناه تكلمنا معه بما قدّره الله من المدافعة عن أهل الشام وأخذنا منه أماناً ورأياً للرعايا .

وثاني يوم الأحد العصر جاء منه مرسوم مضمونه أنه نهار غدا الاثنين مع الصباح تُبادروا لأردينا وديواننا. وهم علي أفندي الداغستاني، واسمعيل أفندي المنيني ، وكاتبه سليمان المحاسني، وشاكر أفندي العمري ، والشيخ أحمد المدرس العطار ، والشيخ أبو الفتح العجلوني المدرس ، والشيخ خليل الكاملي المدرس ، والسيد محمد العاني المدرس ، والشيخ حسين العطار ، ومَنْ موجود من وجوه البلدة ، وكتخدا اليرليه ، والايباشيه ، والشرابجه ، والادباشيه ، والزعما ، والسباهية ، وأرباب التمارات ، وبيوك كاتب ، وكوجك كاتب (٥ آ) والمقابلجي ، وكتّاب خزينة دمشق الشام ، لأجل نظام البلدة على حسب الشرع الشريف .

ففي ثاني يوم ٢٦ ص توجهنا جميعاً لأرديه وديوانه ، والسيف بين يديه ، والعساكر محيطة بنا .

فقال لنا : مُرادي أنْصُب قاضياً ومفتياً وآغاة يرليه .

فقالوا له الجميع : يا مولانا ! أنت خاطبتنا على حسب الشرع الشريف ،

والشرع مقتضاه أن هذه البلدة بلدة حضرة مولانا السلطان مصطفى خـــان ، نصره العزيز الرحمن ، وتوجيه هذه المنـاصب له ، ولا يصحّ من غيره ، ونحن في بيعة حضرة السلطان ورعاياه ، وندعو باسمه ، ومعاشنا من خيره ، ولكن يمكن أن تأذنوا لأمين فتوى المفتي الغايب الشيخ ابراهيم الفـــزاوي أن يكون قيّمقام عنــه ، ولشاكر أفندي نائب الشرع أن يكون من طرف القاضي لحين وصوله ، ولحموي زاده وكالة عن يوسف آغـــا جبري . فانفعل كثيراً وظهر الغضب في وجهه ، وبعد ذلك ألبس حموي زاده فروة ، وأمين الفتوى فروة ، وشاكر أفندي فروة ، وقرأنا الفاتحة ، وخرجنا من عنده من تحت السيف .

ثم ثاني يوم الثلاثاء ٢٧ ص نصب القنابر على القلعة وعلى البلدة ، ووقع على سقف الجامـع الأموي وأخرقوه ، وهُدم من الجامع مـــا هدم الى ثاني يوم الاربعاء .

فعند الظهر ضاجت العالم وانتقلت ، واشتد الرعب والخوف والاضطراب، وسَكّرت البلدة . فلما رأينـــا ذلك توجّه كاتبهُ سليمان المحاسني الى أرديه وقابلتُه ، وقلت له :

– أنت أعطيت أماناً ورأياً لأهل الشام ، وحينئذ نـَصَبْتَ القنـــابر ، وأظهرتَ العذاب على أمة محمد ﷺ وسكان بلاد الله المقدسة ، ومعدن الأنبياء والأولياء ، وأرض المحشر والمنشر ، وما من نبي إلا من الشام أو هاجـــر إلى الشام . وقال ﷺ : لا تزال من أمتي فرقة على الحق ظاهرين ، لا يضرُّهم مَنْ خذَلهم حتى تقوم الساعة ، ألا وهُم بالشام[١] . وفي بعض الأحاديث القدسية:

---

١ – انظر هذا الحديث وغيره في تاريخ دمشق لابن عساكر ، المجلدة الأولى (تحقيقنا)، ص ٢٥ – ٢٥١ .

« يا شام ، من أمّك بسوء قصمته . أنت صوط (كذا) الله في الأرض ، ينتقم بك ممن يشاء من عباده ». فلو كنا مجوساً ما ُفعِلَ بنا هكذا . فإمّا أن ترفع العذاب عنا وإلا نستأذنك ونأخذ جميع أهل الشام من فقرا ، ونسا ، وأولاد كبار وصغار ، ونتوجه على وجهنـــا الى أي مكان قدّره الله تحت التهلكة ، وافعل (٦ آ) بعد ذلك بالبلدة ما شئت .

فحينئذ حصل له توقّفٌ من طَرَف الله ، وأرسل نادى بالأمان ، ورَفَعَ العذابَ بعد الإحراق والنهب والقتل ونهب غالب ما في قرايا الشام ومواشيهم ، ونهب سراية ودايرة عثمان باشا ما عدا سراية الحرم .

واستقرّ الأمرُ الى يوم الاثنين رابع ربيع الأول فجاء منه كتاب وفرّج الكريم الوهاب . ومضمونه :

« إنّه كان سبب مجيئنا لهذه البلاد الشامية لأجل مقابلة عثمان باشا . فلو خرج لنا للخارج ما قارَشْنَاكُم ، وَتَعَرّضْنا للقلعة أخبرونا أنّ بها عثمان باشا وأمواله ، فلما تحققنا ذهابه وأنه ليس بها رفعنا التعرّض ، ومـــا مُرادنا بلدتكم ولا إضراركم وأذيّتكم ، وهذه بلدة مولانا السلطان الأعظم مصطفى خان ، والقلعة قلعته ، أيّدَ الله خلافته الى يوم الدين . وقد عزمنا على التوجّه والعود الى طرف مصر ، ولم يقع من عسكرنا أذيّة لأحدٍ من أهـل الشام ، فنرجو أن تبتهلوا بالدعا لحضرة مولانا السلطان ولنا بالتبعية ، وتذكرونا بالخير والجميل والسلام » .

وطلب منا الجواب عن مكتوبه .

فكتبنا له :

« إنّه وصل كتابكم ، وعرفتونا أنّ سبب (٦ ب) مجيئكم لأجل عثمان

باشا وقد ذهب ، وأنّ البلدة بلدة حضرة مولانا السلطان ، وما مرادنا البلدة ، والآن عازمين على العود الى مصر ، فتَوَجّهوا الى حيث شئتم والسلام » .

وثاني يوم الثلاثة بُكرة النهار رحل متوجّهاً الى طرف مصر . وكانت مدة إقامة أبو الذهب من حين مجيئه للشام الى يوم سفره ستة عشر يوماً تماماً . والله سبحانه فرّج بمنّه وكرمه .

فعند ذلك اجتمعنا جميع علماء البلدة بالسرايا ، واستأجرنا ساعياً ، وكتبنا كتاباً لوالينا عثمان باشا الى حماه أخبرناه بما وقع ، وقيام أبو الذهب من الشام ، وأرسلنا له صورة (مكتوب) أبي الذهب ، وفُتحت البلدة كما كانت أوّلاً .

ثم في يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول جاء عثمان باشا، وولده محمد باشا، ومعه عسكر من حماه ، وجاء قاضي الشام معه مكي أفندي ، والأفندية، وجاء النقيب من عند الدروز ، وجاء يوسف آغا جبري اوغلي من جبل الدروز ومعه نحو خمسة آلاف درزي ، أنزلهم في البلدة بأمر من عثمان باشا . وعاد خليل باشا بعسكره ، ونزل خارج البلدة . وهذا ما وقع على وجه الصدق .

واستمرّت أهل الشام بعد ذلك في عظيم الشدّة والضيق لذهاب أموالهم وخراب قرايا الشام .

وكان قبل ذلك أخذ منهم عثمان باشا (٧ آ) نحو الف كيساً (كذا) من البازركان على سبيل القرْض ليوفيهم إيّاها بواسطة يوسف آغا جبري زاده .

وكان سبب جميع مـــا وقع بقضاء الله تعالى على أهل هذه البلدة المقدسة سببه الظلم والتعدي ، وتولية الأمور من عثمان باشا لغير أهلها لرعاع الناس .

قال ﷺ : « إذا وُسِّدَ الأمرُ الى غير أهله فارتقبوا الساعة[1] » .

وقال الله تعالى : (إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات الى أهلها)[2] .

ولم يقدر أحدٌ يتكلم ويُعْلِم الدولة العلية بذلك .

وحضرة الدولة العلية غير عالمة بأهل الشام والذي حلّ بها .

وكان السبب مع الأجل في موت مفتي الشام السيد علي أفندي المرادي ما حلّ بدمشق الشام من البلايا ، ولم يجسر أن يُعلم حضرة الدولة العليـة بالواقع خوفاً من أمور يلحقه بها الضرر من بعض الأشخاص ، فمات همّاً وغمّاً وحزناً وخوفاً . رحمه الله رحمة واسعة ، وعوّضه الجنة ، فانه كان صادقـاً في خدمة الدولة العليـة . فنسأل الله سبحانه بالانبياء العظـام ، بالملائكة الكرام ، أن يلهـم الدولة العلية الانتقام ممن كان السبب في تحريك هذه الأمـور وتخريب (٧ ب) البلاد وإيذاء العبـاد ، ونهب الأموال ، حيث بقت أهـالي الشام في أسوءِ حال ، ورَمَتْهُم حوادث الليالي بالنبال . فيـا أسفا عليهـا مذ توالت الخطوب اليها ، وأن يشملوا أهل هذه البلدة المقدسة بعميم أنظارهم ويخرجونهم (كذا) من ظلمـات الظلم الى النور ، ويكشفوا عنهم عظيم مـا حلّ بهم من البلاء المسطور ، فان ذلك عند الله تعالى أعظم أجراً من الحجّ المبرور والسعي المشكور ، ولله سبحانه وتعالى مقاليد الأمور .

---

١ - رواه البخاري ، علم ٢ .

٢ - سورة النساء ، ٤ ، الآية ٥٨ .

قال ﷺ : كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته .

والى هنـا جفّ القلم ، بما وقع وزحم ، والله سبحانـه لطيف قدير ، ولا ينبئك مثل خبير .

والحمد لله وحده ، وصلى الله على من لا نبيّ بعده ، وآله وصحبه ، وسلم تسليماً كثيراً .

وكان الفراغ من تسويدها يوم الجمعة سابع عشر
ربيع الأول الأنور سنة خمس
وثمانين وماية والف على يد مؤلفها
الفقير سليمان بن أحمد المحاسني
التميمي المدرس والخطيب
بجامع بني أمية
بدمشق الشام
صينت عن الآلام
على أمد الأيام ، ما ناح حمام
وهطل غمام
آمين

الفهارس

١ ـــ فهرس الالفاظ التركية

اردي : هي المعسكر (سلك ١ ، حاشية ص ٥٦)

اوجاق : ج اوجاقــات . الفرقة من الجيش ، وخاصة فرق الانكشارية (قاموس ألسنه)

اوغلي : الابن

بازركان : التجار

بيوك : الكبير

تيمار : ج تيمارات . هو الاقطاع العسكري ، يمنح لأحــد العسكريين مقابل أن يقدم للجيش جنوداً في الحرب (قاموس السنه)

الجنك : فارسية الأصل . معناها الحرب

سباهيه : ج سباهي وهو الجندي الخيال ، او الذي أقطع اقطاعاً عسكرياً في تركيا (قاموس السنه)

شرابجه : السقاة ، الذين يصنعون الشراب أو الذين يبيعونه (قاموس السنه)

قنابر : أي قنابل

قارشناكم : قال في قاموس ألسِنه : لعلهــا من قرشو ومعناها ضده : أنا قرشو أي أنا ضده ، أو سعى لمجابهته، أو قاومه ، او وقف له، او ماحكه

القبقول : كان يقــال هاذا للعساكر الانكشارية (سلك ١ ، حاشيــة ص ٥٥)

كتخدا : تلفظ كيخيا . معناها هنا الرئيس

كوجك : الصغير

مالكانه : ج مالكانات . ارض او عقار ملك للدولة او أقطعتها الدولة لأحد الأشخاص (قاموس ألسِنة)

متصرف : كان يسمى بذلك من يدير احدى الولايات. ويقابله في مصطلحنا اليوم « محافظ »

مقابلجي : في الأصل معناها الكاتب الذي يجمع ويقابل الأوراق بعضها ببعض ، او المدقق في وزارة المالية الذي يدقق الأوراق المتعلقة بنفقات جيوش المشاة والخيالة (قاموس السنة)

اليرليه : ذكر في سلك الدرر ١ ، حاشية ص ٥٥ ، ٥٧ أنه كأنما عُرّب من لفظ يرلي التركي ، ومقصوده العساكر البلدية او المحلية ، أي التي هي من نفس البلد .

٢ ـ فهرس الالفاظ العامية الدمشقية

يَقَتْ : صوابها بَقِيَتْ

سَكَّرَ : أي أغلق

ضاجت : بمعنى ضَجَّتْ

قرايا : جمع قرية

قيمقام : تحريف عن قائم مقام .

٣ ـــ فهرس الاعلام